الشيعة ومشكلة الهوية والولاء

د.صلاح الفضلي(*)

مشكلة الولاء من المشاكل العويصة التي تواجه الأقليات في المجتمعات كلها، ويتعقد الأمر أكثر إذا ارتبطت مسألة الولاء بأسس عقائدية، كما هو الحال مع الشيعة في المجتمعات التي يكونون فيها أقلية. هذه الحالة لا تختص بدولة بذاتها، بل تشمل تقريباً جميع المجتمعات التي يكون فيها الشيعة أقلية، والأمثلة الصارخة على ذلك هي البحرين والمنطقة الشرقية في السعودية واليمن ولبنان ونيجيريا، وهي الدول التي تتواجد فيها نسبة كبيرة من الشيعة، حيث يُنظر إلى الشيعة على الدوام على أن ولاءهم للخارج، وليس لأوطانهم، وخاصة في أوقات الحروب أو الأزمات.

من الأمثلة الصارخة على اتهام الشيعة بالولاء للخارج ما حصل في البحرين عام ٢٠١١. فرغم أن المطالبات بالإصلاح السياسي شملت العديد من الدول العربية مثل مصر وسوريا وليبيا والمغرب وتونس والسودان والمغرب في إطار موجة ما سُمي حينها بالربيع العربي، إلا أنه لم يتم اتهام أياً منها بالطائفية أو الولاء للخارج، ولكن عندما حصلت مطالبات مشابهة في البحرين تم اتهامها بالطائفية على الفور، لكون غالبية المتظاهرين كانوا من الشيعة، وهو أمر يُفترض أن يكون بديهياً، لكون الشيعة يشكلون أغلبية في البحرين؛ ولأنهم كانوا يعانون من التمييز على أساس طائفي.

كما أن تهمة الولاء والتبعية لإيران تواجه كل الأقليات الشيعية في الدول العربية والإسلامية، وبالأخص شيعة لبنان، وكذلك الأقلية الزيدية في اليمن، وبالتأكيد يشمل ذلك الشيعة الموجودين في المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية. كل هؤلاء

(*) د.صلاح الفضلي/ باحث وأكاديمي كويتي.

يصنفون على أنهم من أتباع إيران، ويُنظر إليهم على أنهم يقدمون مصلحة إيران على مصالح بلادهم.

إذا كان من المعقول اتهام الأقلية بأن ولاءها للخارج بزعم حاجتها للاستقواء، لكن يبدو غريباً اتهام الأغلبية بأن ولاءها للخارج، والأغرب منه اتهام الأغلبية التي هي في الحكم بالتهمة نفسها، كما هو الحال في وضع الشيعة في العراق بالقول بأن ولاءهم لإيران. توجيه أصابع الاتهام التلقائي للشيعة بأن ولاءهم للخارج يدل على قناعة راسخة تمت عن طريق برمجة ذهنية مكثفة لفترة طويلة، لتجعلها من المسلمات التي لا تقبل النقاش لدى عامة الناس.

كان للخطاب الإعلامي المكثف من قِبل الدول العربية عموماً، والدول الخليجية بالخصوص دور في ترسيخ تلك القناعة في أذهان العامة. ولعل صراع المحاور المحتدم بين دول الخليج من جهة وإيران من جهة أخرى ساهم كثيراً في توظيف الخطاب الإعلامي لخدمة هذا الصراع. كما أن بعض التصريحات التي تصدر من بعض قادة الدول العربية التي تحذر من "خطر الشيعة" وتكرار الحديث عن "هلال شيعي" يمتد من إيران إلى لبنان، والادعاء بأن إيران تحتل خمس عواصم عربية حفز التوجس الموجود في النفوس. كل ذلك يضاف إلى أرث تاريخي ثقيل محمل بسوء الفهم وعدم الثقة. وبدلاً من أن ينحصر هذا الصراع في إطار سياسي تم توظيفه ليصبح صراعاً طائفياً مدمراً.

أما في الدول التي يمثل فيها الشيعة نسبة قليلة جداً مثل مصر، أو سوريا، أو المغرب، أو الجزائر، فإن هذه الفئة لا تعلن من الأساس عن توجهها العقائدي خوفاً من الاضطهاد، بل تكتفي بممارسة شعائرها الدينية بصورة سرية، وخصوصاً أن لدى مجتمعات الأكثرية السنية حساسية كبيرة من مسألة "تشييع السنة"، ولنا في حادثة قتل

الشيخ حسن شحاتة في مصر، وسحله في الشوارع لاتهامه بمحاولة نشر التشيع وسب الصحابة وأمهات المؤمنين مثال على ذلك.

إشكالية الهوية

الهوية عبارة عن مجموعة من الخصائص المشتركة التي تميز بين مجموعة بشرية عن بقية المجموعات، أو مجتمع عن بقية المجتمعات، أو أمة عن بقية الأمم. وتلك الخصائص تشمل اللغة والدين والعادات والتقاليد الاجتماعية والقيم الأخلاقية التي تتبناها تلك المجموعة أو ذلك المجتمع أو تلك الأمة. الشعب الألماني، على سبيل المثال، له ثقافة مختلفة عن الشعب البريطاني رغم أنهما يشتركان في الدين، كما أن الشعب المصري له هوية تختلف عن هوية الشعب السوري، رغم أنهما يشتركان بالدين والطائفة واللغة، وكذلك الحال مع الشعب الكويتي الذي يختلف عن الشعب السعودي في بعض الخصوصيات، رغم أنهما يشتركان في الكثير من الجوانب. بل حتى داخل المجتمع الواحد نجد هناك هويات مختلفة في اللهجة أو في طريقة اللبس أو في العادات والتقاليد الاجتماعية، وكما يقول معلوف فإن "هويتي هي ما يجعلني غير متماثل مع أي شخص أخر" (إيميل معلوف، الهويات القاتلة، ص ١٤). وإذا كانت هناك عدة عوامل تحدد هوية الفرد أو المجتمع فإن هذه العوامل ليست متساوية من حيث التأثير في تشكيل هوية الفرد، فالدين يمثل عند أغلب الناس العامل الأهم في الهوية، فالمسلم على سبيل المثال يتعاطف في الغالب مع المسلم الأمريكي أكثر من تعاطفه مع العربي المسيحي.

من خلال هذه الخصائص المشتركة بين أفراد مجموعة ما، يصبح الفرد مجرد عضو في هذه المجموعة، ومن ثُم يتحمل تبعات انتمائه هذا شاء أم أبى. وعلى هذا

الأساس يبدأ الفرد بالتعامل مع الآخرين من هذا المنطلق، كما أن الآخرين يتعاملون معه كذلك على أنه يحمل صفات وخصائص المجموعة نفسها التي ينتمي إليها. ومع مرور الوقت وبصورة تلقائية، يصبح هذا الفرد المنتمي إلى المجموعة يرى أن بقية أعضاء مجموعته أقرب إليه من أعضاء المجموعات الأخرى، وتبدأ تصرفاته ومواقفه وسلوكياته تتأثر بهذا الانتماء، فهو يتعاطف مع ما يحدث لعضو أو جماعة من مجموعته، حتى لو كانوا في بلد بعيد عنه؛ لأنه يعتبر أنهم جزءًا منه.

الإنسان بطبعه يحب تمييز الأشياء أو البشر وتصنيفهما، لأن عملية التصنيف أسهل في التعامل مع الناس، فبدلاً من أن يتعامل الإنسان مع عشرات الالاف من البشر، فإنه يقوم بتصنيف هذا الجمع الكبير إلى مجموعات عدة، تحمل كل منها صفات معينة، وبمجرد أن يجد شخصاً ينتمي إلى إحدى المجموعات، فإنه يقوم بشكل تقائي بإسقاط جميع صفات تلك المجموعة عليه. على سبيل المثال، فلو أن شخص صنف الشعب الهندي على أنه شعب كثير الكلام، كسول، وذو مستوى ذكاء متدني، فإنه بمجرد أن يرى هندي يتوقع فيه أن تكون لديه جميع هذه الصفات التي وضعها في ذهنه عن الشعب الهندي.

تصنيف الناس إلى مجموعات هو أحد الانحيازات الذهنية الموجودة لدى الإنسان، ويسمى "تحيز التنميط"، بحيث يكون لكل أفراد المجموعة صفات مشتركة، مثل الذكاء، أو الغباء، أو البخل، أو الجبن، أو الاحتيال وغيرها من الصفات. وحسب ما تقول نظرية "الهوية الاجتماعية" فإن الانتماء لمجموعة ما يدفع الأفراد المنتمين لتلك المجموعة إلى تفضيل أفراد تلك المجموعة على أفراد بقية المجموعات. ومن خلال هذا التمايز بين المجموعات تتشكل هوية مجتمعية لكل مجموعة. وإذا تعرضت مجموعة ما لخطر من إحدى المجموعات الأخرى فإن ذلك الانتماء يتحول إلى تعصب أعمى للمجموعة من قِبل أفرادها، ويتحول إلى كره أعمى لأفراد المجموعة المنافسة.

لم يعارض الدين الإسلامي ذلك النوع من الانتماء من حيث المبدأ، بل شجع عليه في العديد من النصوص الدينية، مثل قوله تعالى: "المؤمنون بعضهم أولياء بعض" (سورة التوبة، الآية ٧١)، وكما ورد في الحديث الشريف: "المسلم أخو المسلم، لا يسلمه ولا يظلمه"، أي أن النصوص الإسلامية شجعت أن يكون للمؤمنين أو المسلمين مجموعة متميزة متكاتفة فيما بينها.

الدين لا ينظر إلى الميل القلبي بحد ذاته على أنه من العصبية، وإنما يعتبره أمراً فطرياً جُبلت عليه النفس البشرية، وفي هذا يقول الإمام علي بن الحسين (ع): "ليس من العصبية أن يحب المرء قومه، ولكن العصبية أن يرى شرار قومه خير من خيار قوم آخرين". قد يقول قائل، إن الحس الأخلاقي السليم يقتضي أن يتفاعل الإنسان مع كل ظلم يقع على أي إنسان في العالم دون تمييز، لا أن يقتصر تفاعله على من يشتركون معه في الهوية. هذا الكلام صحيح بالعموم، ولكنه لا يعني أن يتأثر الإنسان فيما يقع من ظلم على القريب والبعيد بنفس المقدار، فالتفاوت في التأثر أمر فطري لا مناص منه، وهو جزء من طبيعة الإنسان. ومن ثم فالانتماء إلى مجموعة ما يعني تلقائياً أن يتأثر الإنسان بما يجري لها بشكل أكبر.

كون هوية الفرد، أو المجموعة، أو المجتمع، أو الأمة ككل تتشكل على أساس مرتكزات الدين واللغة والثقافة لا يعني أن هذه الهوية أو الشخصية ثابتة لا تتغير، بل العكس من ذلك، فالهوية –وإن كانت تظل تعتمد على الركائز الأساسية (الدين، اللغة، القيم الأخلاقية) – إلا إنها تتأثر بالظروف التي تمر على الفرد أو المجتمع، وبمقدار قوة التأثير الذي تتعرض له تتغير هذه الهوية بدرجة أو أخرى، فقد يكون التغير طفيفاً، وقد يكون قوياً وعميقاً. ولذلك فقد يكون لمجموعة أو مجتمع معين هوية في مرحلة ما أو مكان ما، وتكون له هوية مختلفة نوعاً ما في مرحلة زمنية أخرى أو في مكان أخر.

الأقلية والتوفيق بين الولاءات

هناك تعريفات عدة للأقلية من الناحية السياسية، ومنها ما أوردته الموسوعة السياسية حيث عرفت الأقلية على أنها "مجموعة من سكان دولة أو إقليم ما، تخالف الأغلبية في الانتماء العرقي أو اللغوي أو الديني". أما من الناحية الاجتماعية، فيتم تعريف الأقلية على أنها "جماعة من الأفراد الذي يتميزون عن بقية أفراد المجتمع، عرقيا، أو قوميا، أو دينيا، أو لغويا، وهم يعانون نقصا نسبيا في القوة، ومن ثم يخضعون لبعض أنواع الاستعباد والاضطهاد والمعاملة التميزية".

وكما يقول لوبون فإنه "أياً تكن نوعية الأفراد الذي يشكلونه وأيا يكن نمط حياتهم متشابهاً أو مختلفاً وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم أو ذكاؤهم فإن مجرد تحولهم إلى جمهور يزودهم بنوع من الروح الجماعية. وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التي كان سيحس ويفكر ويتحرك بها كل فرد منهم لو كان معزولاً" (غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ص ٥٨).

تأثر شخصية الفرد بثقافة المجموعة وهويتها التي ينتمي إليها لا يعني كما يقول الدكتور علي الوردي "أن الفرد يأخذ كل مميزاته الشخصية من المجتمع الذي يعيش فيه، فهناك في أعماق كل شخصية جزء دفين لا يمكن أن يخضع لقواعد المجتمع أو يستجيب لإيحائه. إن هذا الجزء هو السبب الذي جعل كل فرد من الأفراد يختلف عن غيرهب شخصيته (علي الوردي، شخصية الفرد العراقي، ص ٤٤). وهذا ما يمثل خصوصية كل فرد عن بقية الناس. ولذا قد تجد شخصاً يتصف بالتحرر خرج من أسرة شديدة التدين، أو العكس. ولكن بشكل عام فإن نسبة كبيرة من هوية كل فرد تتحدد من خلال ظروف اجتماعية يكتسبها الفرد من البيئة التي يعيش فيها أكثر من العوامل التي يكتسبها الإنسان من خلال الوراثة، وهو أمر ينعكس بطريقة تلقائية على طريقة تفكير الإنسان وزاوية رؤيته لما يحدث من حوله، والمواقف التي يتخذها،

والسلوكيات التي يتصرف بها مع الآخرين، فالإنسان يرى الأمور بعدسة مكونة من ثقافته وموروثاته.

الشيعة بين الهوية الوطنية والهوية المذهبية

يُطرح السؤال عن أزمة في الهوية عندما تتصارع هويتان عند شخص أو جماعة، بحيث تجذبه الهوية الأولى باتجاه وتجذبه الأخرى باتجاه معاكس. وكمثال على ذلك الرياضي الذي يهاجر من موطنه الأصلي إلى بلد أخر حيث يجد فيه مصدر رزقه، ويحصل فيه على جنسيته، فعندما يتقابل ذلك الرياضي ضمن فريق الدولة التي حصل على جنسيتها مع فريق يمثل مسقط رأسه يجد هذا الرياضي نفسه في حيرة فيمن يتمنى أن يفوز: فريق البلد الذي منحه فرصة البروز والتفوق وأمن له مصدر رزق لم يكن يحلم به، أم يتمنى فوز فريق بلده الأصلي الذي ولد فيه وتربى بين أحضانه، وعاش فيه مراحل طفولته؟ كما أن المسيحي العربي الذي ينشأ فيجد أن لغته العربية هي لغة الإسلام المقدسة قد يجد نفسه في حالة تناقض بين الانتماء الديني والانتماء القومي. كما أن الشاب التركي الذي هاجر إلى ألمانيا يجد نفسه يعيش صراعاً بين هوية إسلامية محافظة وبين هوية ليبرالية متحررة.

السؤال المستحق هو هل ينطبق مثل هذا التنازع في الهوية لدى الشيعة في البلدان التي يعيشون كأقلية فيها؟ وهل هناك تعارض بأن يكون الفرد ملتزماً بمذهبه كشيعي وبين أن يكون الفرد محباً لوطنه ومستعداً لأن يقدم لها الغالي والنفيس؟ إذا أراد الشخص الموضوعي الإجابة على هذا السؤال فلن يجد أي تعارض بين الهويتين، فالمواطن الشيعي في ذلك يتساوى مع غيره من أتباع المذاهب الأخرى، إما في أداء ما هو مطلوب منه أو التقصير في ذلك. وهو في المقابل يؤدي ما هو مطلوب منه تجاه

عقيدته. ما هو واضح هو أنه ليس هناك تعارض بين الهويتين، لأن من الطبيعي أن يحمل الإنسان أكثر من هوية، ولكن هناك من يريد أن يختلق هذا التعارض لإحراج الشيعة.

الهوية الاجتماعية

الانتماء إلى المجموعة ما يمثل نوعاً من الحماية للفرد، فالفرد وحده يشعر بأنه في حالة ضعف، وهو يريد من خلال الانتماء لمجموعة ما أن يحافظ على نفسه ومصالحه. الميل إلى البقاء ضمن مجموعة هو من أقوى التحيزات الذهنية[1] الموجودة في الإنسان، هذا التحيز يعني ميل أغلبية الناس مع الرأي السائد في المحيط الذي يعيشون فيه، سواء أكان هذا المحيط هو العائلة، أو القبيلة، أو المجتمع، أو الأمة ككل. البقاء مع الجماعة بشكل عام يشعر الفرد بالأمان ويوفر له الحماية.

المجتمعات البشرية تحفل بالصراعات التي تنشأ بسبب التنافس على الموارد الموجودة، وعندها تبرز أهمية قوة الجماعة ككل، ولذلك فإنه لا قيمة للفرد دون جماعته، ولعل أفضل مثال على ذلك ما يحدث من صراع بين القبائل لشح الموارد المتوفرة في البيئة الصحراوية. حينها يجد الفرد أنه من الضروري أن ينتمي إلى جماعة، ففي نهاية الأمر ما سيجري على الجماعة سيجري عليه باعتباره عضواً فيها، ولو وقع عليه أذى فإن الجماعة سوف تتصدى للمعتدي باعتبار الاعتداء موجهاً للجميع، على عكس فيما لو انفرد هو برأيه، فحينها سوف يتحمل هو الأذى لوحده، وهو أمر يتجنبه غالبية الناس. ولذا فإن الفرد يتمتع بالحماية والأمان الذي توفره

[1] التحيزات الذهنية عبارة عن جوانب ضعف في طريقة التفكير لدى الإنسان، وهذه التحيزات هي نوع من الميول الذهنية لدى الإنسان توجهه نحو التفكير بنمط معين.

الجماعة لأفرادها، وفي مقابل هذا الميزة، فإن من واجبه أن يحافظ ويدافع عن مصالح المجموعة.

وفقاً لنظرية الهوية الاجتماعية Social Identity Theory التي تفسر الحالة النفسية للأقلية في مقابل الأكثرية، فإنه يتم التعامل مع الأفراد على أنهم جزء من جماعة، ويتم تقييمهم والتعامل معهم على هذا الأساس، وهو ما يدفع الأفراد مع مرور الزمن إلى التعامل على هذا الأساس، حتى لو لم يكونوا مقتنعين بذلك، فعملية تقسيم المجتمعات على أساس عرقي أو ديني أو طبقي أمر لا مفر منه، وعلى هذا الأساس يميز كل فرد نفسه عن الآخرين. وبصورة تلقائية يتم التقليل من الاختلافات داخل المجموعة، وتضخيم الاختلافات مع المكونات المجتمعية الأخرى. ولأن الأقلية عادة ما تشعر بالخوف من الأكثرية وخاصة إذا ما تعرضت للتخوين أو الضغط فإنها تتكفأ على نفسها للحصول على قدر أكبر من الأمان، من خلال التعاضد فيما بينها عندما تشعر بنوع من التمييز أو التهديد على أساس المصير المشترك، وهو ما ينطبق على حالة الشيعة في الكويت وفي غيرها.

من الناحية الاجتماعية، كلما زاد التمييز ضد أقلية ما فإن هذه الأقلية تميل بشكل أكبر للتقوقع لحماية نفسها. وكنتيجة لذلك، فإنه كلما قلت وتضاءلت مستويات الاندماج داخل المجتمع، كلما برزت في المجتمع مسألة الأقليات وتداعياتها الثقافية والاجتماعية. بمعنى أن وجود الأقليات في أي فضاء اجتماعي، يتحول إلى مشكلة، حينما يفشل هذا الفضاء في تكريس قيم التسامح واحترام المختلف وصيانة حقوق الإنسان، والسعي لمزيد من خطوات الاندماج الوطني ومبادراته، حينذاك تبدأ المشكلة، وتبرز العصبيات والخصوصيات الذاتية، وتنمو الأطر التقليدية لكي تستوعب جماعتها البشرية بعيدا عن تأثيرات المحيط واستراتيجياته المختلفة" (محمد محفوظ، نظرات وأفكار حول المسألة الشيعية في العالم العربي).

اختلاف معتقد جالية أو أقلية عن معتقد الأكثرية هو ظاهرة موجودة في كثير من دول العالم، وخصوصاً بالنسبة للجاليات المسلمة في الدول الغربية، ولكن تلك الظاهرة لا تشكل مشكلة كبيرة في المجتمعات الغربية ذات النزعة الفردية، والتي لا يُعتبر فيها المعتقد الديني ذا أهمية كبيرة بالنسبة لعامة الناس، وخصوصاً إذا ما كانت حكومات هذه الدول تعمل على إزالة هذه الفوارق وتمنع إساءة جماعة لأخرى، ولا تسمح بإثارة نعرات دينية. أما في المجتمعات الإسلامية بشكل عام والمجتمعات العربية بشكل خاص، وبسبب ثقافة الإقصاء والعنف تجاه المختلف، فإنه فلا يزال الاختلاف بين معتقدات الأقلية ومعتقدات الأكثرية يشكل مشكلة كبيرة في المجتمع، وربما يصل هذا الاختلاف إلى حد الأزمة. وقد يتطور الأمر إلى أن يصل إلى حرب أهلية، على أساس ديني أو مذهبي، والأمثلة على ذلك في التاريخ القريب عديدة، ومنها الحرب اللبنانية في الفترة ١٩٧٦-١٩٩٠، وأيضاً ما حصل في العراق في الفترة ٢٠٠٤-٢٠٠٨، ومن ٢٠١٤-٢٠١٧، وما حصل في سوريا في الفترة ٢٠١٢-٢٠١٨.

تهمة التخوين وعقدة النقص

تحولت قضية الولاء عبر الزمن إلى عقدة نقص لدى الشيعة في بلدانهم. وعلى هذا الأساس، يعتبر الكثير من الشيعة أن دولهم تعاملهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وأنها لا تقوم بدورها المطلوب في لجم وكبح الأصوات التي تشكك في ولائهم.

إلى جانب الشعور بعقدة النقص، فإن المواطن الشيعي يعيش حالة من التناقض أو الازدواجية في الشخصية، فهو في حياته الخاصة عندما يمارس شعائره الدينية ويحضر لسماع الخطب في المساجد والحسينيات دائماً ما يتردد في هذه الخطب قصة ثورة الإمام الحسين (ع) ضد بني أمية، وكيف أنه أطلق الشعار الخالد

"هيهات منا الذلة" عندما وجد الجيوش تحيط به من كل مكان، وهو يواجههم بنفر قليل من عائلته وأهل بيته وانصاره، وهو الشعار الذي أصبح راسخاً في الوجدان الشيعي على مدى العصور بما يمثله من قيم رفض الظلم والمذلة، والثبات على المبدأ، ولكن في المقابل نجد أن المواطن الشيعي في الحياة العامة يعود ليمارس دور الضحية، المغلوب على أمره، والذي يرضى بأن يكون مواطناً من الدرجة الثانية، ويظل يقبل بتعسف السلطة معه، خوفاً مما هو أسوء، بل ربما وصل بها الحال إلى اعتبار أن ذلك مبعث فخر له؛ لأنه تجسيد لمظلومية أهل البيت، وهذه عقلية التفكير هذه أقرب ما تكون إلى ما يسمى في علم النفس بالحالة المازوخية.

الفهم الذي ينطلق منه من يهاجم الشيعة في معارضتهم لسياسات الدولة الخارجية يفترض أنه لكي يُعد الشخص مواطناً صالحاً مخلصاً لبلده فإن عليه أن يوافق على كل ما تتخذه الحكومة من مواقف تجاه القضايا الدولية، وأن أي رأي معارض إنما ينم عن خلل في الولاء للوطن. هذا الفهم المغلوط لمفهوم الوطنية يعتبر أنه يجب أن يكون هناك تطابق بين ما تتخذه الحكومة من سياسات وبين تأييد جميع المواطنين لهذه السياسات.

هذا الفهم للولاء هو بالطبع فهم عنصري، على أساس العصبية القبلية، حيث لا قيمة لرأي الفرد في مقابل رأي الجماعة، بل عليه أن يؤيدهم، حتى لو كانوا على خطأ، وهو مصداق لقول الشاعر الجاهلي دريد بن الصمة:

مَا أَنَا إِلَّا مِنْ **غَزِيَّة** إِنْ غَوَتْ... غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ **غَزِيَّة** أَرْشُد

في حين أن هذا فهم خاطئ لمفهوم الولاء والمواطنة، فليس هناك ترابط ضروري بين ولاء المواطن لوطنه وبين المواقف السياسية التي تتخذها حكومة بلده، والتي هي

مواقف سياسية عرضة للتغيير والتبدل كما أنها عرضة للخطأ أيضاً، وما أكثر هذه الأخطاء.

الشعور بالمظلومية

إذا كان هناك من خصائص لشخصية الفرد الشيعي إلى جانب الشعور بالانتماء إلى مدرسة اهل البيت، فلا شك أن الشعور بالمظلومية هي أبرز خصائص هذه الشخصية. يمكن القول إن هذا الشعور راسخ في الوجدان الشيعي من خلال استحضار ما تعرض له أئمة أهل البيت من قتل وسجن وتشريد، بل إن ذلك جاء صريحاً على لسان أكثر من واحد من الائمة، ومن ذلك قول الإمام الحسن بن علي " والله، إنه لعهد عهده إلينا رسول الله: أن هذا الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من ولد علي وفاطمة، ما منا إلا مسموم، أو مقتول".

يؤكد الشيخ الصدوق على هذا المعنى بقوله "وجميع الأئمة الأحد عشر بعد النبي قتلوا، منهم بالسيف، وهو أمير المؤمنين، والحسين. والباقون قتلوا بالسم، قتل كل واحد منهم طاغية زمانه، وجرى ذلك عليهم على الحقيقة والصحة". ونجد نفس المعنى أيضاُ في الحوار الذي جرى بين الإمام علي بن الحسين زين العابدين وعبيد الله بن زياد بعد واقعة كربلاء عندما أمر ابن زياد بضرب عنق الإمام زين العابدين، فرد عليه الإمام بقوله: "أبالقتل تهدّدني!! أما علمتَ بأنّ القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة".

لم يقتصر أمر الظلم والتقتيل الذي وقع على أئمة أهل البيت، بل امتد ليشمل أولادهم وأصحابهم، ومن بعد ذلك علماء شيعتهم. ومن أبرز من قتل من أهل البيت الشهيد زيد بن علي بن الحسين، وهو أخو الإمام محمد الباقر وعم الإمام الصادق، حيث قتل وظل مصلوباً لأربع سنين حتى عششت الفاختة في جوفه (محمد مهدي

الحائري، شجرة طوبى، ج١، ص ١٤٣)، ولمّا بلغ قتل زيد إلى الإمام الصادق قال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، عند الله أحتسب عمي إنّه كان نعم العم. إنّ عمي كان رجلاً لدنيانا وآخرتنا، مضى والله عمي شهيداً كشهداء استشهدوا مع رسول الله وعلي والحسين صلوات الله عليهم". ولكثرة من قُتل من بني هاشم على أيدي سلاطين الجور، أفرد أبو الفرج الأصفهاني كتابه "مقاتل الطالبيين" أورد فيه أخبار ٥٠٠ نفر من شهداء آل أبي طالب (ع)، ابتداء من جعفر بن أبي طالب، وانتهاء بمن خرج على الحكم الجائر في عهد بني أمية وبني العباس.

إذا تحدثنا عن أصحاب الأئمة ممن تعرضوا للقتل لدفاعهم عن أهل البيت، فلابد أن يكون في مقدمتهم حُجر بن عَدي الكندي الكوفي، وهو من فضلاء الصحابة وزهادهم، وقد وفد على النبي (ص). كما لا يمكن المرور على من تعرضوا للقتل بسبب حبهم لأهل البيت دون ذكر سعيد بن جبير (٤٦-٩٥ هـ)، حيث قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بسبب خروجه مع عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته على بني أمية، والتي انتهت نهاية دموية في معركة دير الجماجم. وهو ما حدث أيضاً مع الصحابي عمرو بن الحمق الخزاعي، حيث قُطع رأسه، وهو أول رأس طيف به في الإسلام، وكذلك فُعل مع رشيد الهجري وقنبر خادم الإمام علي (ع) وكميل بن زياد النخعي وهم من خواص الإمام علي (ع) (محمد جواد مغنية، الشيعة والحاكمون، ص ١٣٨).

أما علماء الشيعة الذين تعرضوا للقتل فهم كثر، ولعل أبرزهم: محمد بن مكي العاملي (الشهيد الأول)، وزيد الدين العاملي (الشهيد الثاني)، وشهاب الدين السهروردي، والمحقق الكركي، والقاضي نور الدين التستري والشيخ علي الحر العاملي، والسيد نصر الدين الحائري والسيد محمد باقر الصدر، والعديد غيرهم.

بعد هذه القائمة الطويلة من الشهداء، فضلاً عن المجازر التي تعرض لها الشيعة عبر التاريخ وحتى يومنا هذا، كان من الطبيعي أن يصبح الشعور بالمظلومية

ملازماً لعامة الشيعة. ويظهر هذا الشعور في التركيز على إحياء المناسبات الدينية المرتبطة بوفيات أئمة أهل البيت بطريقة حزينة عبر شعائر أصبحت ثابتة ومستقرة في البيئة الشيعية. وعلى جانب أخر تجد أن فكرة التقية مهمة في البيئة الشيعية لكثرة ما تعرضوا له من اضطهاد. ونحن عندما نسرد التي تعرض لها أئمة أهل البيت وشيعتهم لا نقول إن أهل السنة لم يتعرضوا لحوادث مشابهة من قبل حكام الجور، فأبو حنيفة مات في سجن المنصور، وابن حنبل تعرض للجلد والسجن من قبل المعتصم، ولا نريد أن نقول إن الدول الشيعية التي حكمت لم تمارس التقتيل الطائفي ضد السنة أيضاً، فالتاريخ لا يمكن تزويره، ولكن ما نريد قوله إن التنكيل والبطش بالشيعة كان أقوى وأشد لكونهم أقلية، وخوفاً من أن يشكلوا خطراً على النظام الحاكم.

إذا كان للشعور بالمظلومية جانب إيجابي وهو الشعور بالتضحية من أجل المبدأ والثبات عليه رغم الأثمان الباهظة المدفوعة، فإن هذا الشعور قد يتحول إلى سلوك سلبي، يتمثل في القبول بلعب دور الضحية، وعدم الخروج عنه، وكأنه قدر لا يمكن الفرار منه. هذا الشعور قد يؤدي إلى ما وصل إليه السود في أمريكا من القبول بالواقع المفروض، والاقتناع بأن دور الفرد الأسمر البشرة ينحصر في أداء الأدوار الثانوية، لأن قدراته الذاتية لا تؤهله لأن يقارع الشخص الأبيض البشرة، وكأنه أمر لا فكاك منه.

التشيع العلوي والتشيع الصفوي

منذ قيام الثورة الإسلامية في إيران، وفي أجواء العداء السياسي بين إيران من جهة وكثير من الدول العربية من جهة أخرى، حاول البعض التفريق بين الشيعة العرب وبين الشيعة الفرس، بزعم أن الشيعة العرب يختلفون عن الشيعة الفرس، وأنهم أقرب إلى المواقف التي تتبناها الدول العربية، في مقابل الشيعة الفرس الذين ينطلقون في معتقداتهم ومواقفهم من كره العرب. هذه التفرقة تحاول أن تصور الاختلاف السني-

الشيعي باعتباره اختلافاً على أساس القومية، وليس اختلاف على أساس الانتماء المذهبي.

وجد دعاة ذلك الرأي ضالتهم في كتاب علي شريعتي "التشيع العلوي والتشيع الصفوي" من داخل البيئة الشيعية نفسها. لكن يبدو أن أولئك قد اكتفوا بعنوان الكتاب للتأكيد على وجود نوعين من التشيع على أساس قومي، وأكاد أجزم أن الغالبية ممن يستشهدون بأفكار علي شريعتي على وجود نوعين من التشيع لم يقرؤا كتابه.

فكرة كتاب "التشيع العلوي والتشيع الصفوي" مختلفة تماماً عما ذهب إليه هؤلاء، فعلى شريعتي في هذا الكتاب لا ينظر إلى التشيع على أساس أنه ينقسم إلى تشيع علوي (عربي) وتشيع صفوي (فارسي)، بل المقصود في التفريق بين النموذجين "العلوي و"الصفوي" هو التفريق بين التشيع الأصيل على المستوى النظري، وهو التشيع الذي أسسه وشيد معالمه أئمة أهل البيت بدءًا من الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وبين التشيع الموجود في الواقع في العهد الصفوي، والذي لحقه الكثير من التشويه على مستوى الممارسة، وخصوصاً في إحياء المناسبات الدينية والتي أصبحت تسمى بالشعائر، والتي وصلت في حالات إلى حد الخرافة والأساطير.

كما أن علي شريعتي يؤرخ لحقبتين زمنيتين، الأولى بدأت مع نهاية خلافة الإمام علي (ع) حيث أصبح الشيعة مطاردين من قبل أنظمة الحكم، ويتعرضون لأنواع العذاب والتنكيل ويمارسون شعائرهم خفية بعيداً عن أعين الحكام، والثانية بدأت مع قيام الدولة الصفوية عندما استلم زمام الحكم سلاطين يدعون حب أهل البيت، ويشجعون على إقامة هذه الشعائر، بل ويبالغون فيها، ويتظاهرون بالخضوع لعلماء الدين، وجعلوا المذهب الاثنى عشري هو المذهب الرسمي للدولة.

لو كان مؤلف كتاب "التشيع العلوي والتشيع الصفوي" شخصاً عربياً لكان من الممكن النظر في صحة ما يدعيه هؤلاء، لكن أن يكون مؤلف هذا الكتاب من القومية الفارسية، ويكون من الداعمين الأقوياء لقيام الثورة الإسلامية في إيران، بل ربما يكون منظرها الأول، فإن هذا يدلل على أن دعوى هؤلاء في غاية التهافت والضعف، ويكشف عن نيات لتوظيف أفكار شريعتي لتدعيم ما يتهمون به الشيعة الفرس. ونسى هؤلاء أن الصفويين لم يكونوا فرساً، بل كانوا أتراكاً من مدينة أردبيل، وأنهم كانوا في الأساس من أهل السنة ثم تحولوا إلى المذهب الشيعي.

واضح أن توظيف عنوان كتاب علي شريعتي يهدف في الأساس لضرب الشيعة من غير العرب، وبالأخص الشيعة الفرس، وتصويرهم على أنهم أصحاب نوايا سيئة، وأنهم دخلوا الإسلام لمآرب خاصة بهم، وأن من بين هذه المآرب ضرب الإسلام من داخله. إذا كان صحيحاً التفريق بين نوعين من التشيع على أساس القومية فعندها يصح أيضاً أن نقسم التسنن إلى قسمين: التسنن العمري (نسبة إلى عمر بن الخطاب) والتسنن السلجوقي (نسبة لدولة السلاجقة) أو التسنن العثماني (نسبة للدولة العثمانية)، فكلتا الدولتين كانت لها ممارسات تسلطية تجاه العرب.

مرة أخرى، يجب أن يُنظر إلى كتاب "التشيع العلوي والتشيع الصفوي" على أن فكرته الأساسية هي التركيز على المقارنة بين النظرية والتطبيق، نظير قولنا في وقتنا الحالي أن هناك فرقاً بين الإسلام "المحمدي" والإسلام "الأمريكي"، وبالتأكيد ليس هناك إسلام أمريكي، وإنما المقصود الممارسة المشوهة للإسلام بضغوط أمريكية، والتي أثمرت في الآونة الأخيرة عن تطبيع العلاقات بين الكيان الصهيوني وأغلب الدول العربية. هذا النموذج من الإسلام الذي يستشهد أيضاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وهو ما فعله الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر عند توقيع معاهدة السلام بين مصر والكيان الصهيوني، عندما ختم كلمته بالآية الكريمة "وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله" (سورة الأنفال، الآية ٦١). إذاً الأمر يتعلق بخلط –إما عن جهل

وإما عن تعمد– بين النظرية وبين التطبيق، وهو خلط شبيه بالخلط بين الإسلام والمسلمين، وهو ما يعمد إليه البعض بإسقاط ممارسات بعض المسلمين على الإسلام نفسه، وكمثال على ذلك ما يقوله الغربيون عن الإسلام نفسه، واعتباره ديناً يقوم على العنف والقتل، ويستدلون بذلك على ما تقوم به الجماعات المتطرفة مثل تنظيم داعش أو حركة طالبان أو غيرهما من عمليات إرهابية باسم الإسلام.

روافض ونواصب

عندما تحتدم الأمور بين مجموعتين وتصل إلى حد العداء يكون التنابز بالألقاب والمسميات جزءًا من ذلك الصراع، وهذا أمر موجود على صعيد الصراع الطائفي كما هو معلوم، ولذلك نجد أن المتطرفين من السنة ينبزون الشيعة بأنهم "روافض"، وهي إشارة إلى الادعاء بأن أتباع الشهيد زيد بن علي طالبوه بأن يتبرأ من أبي بكر وعمر، ولما لم يقبل رفضوا مبايعته. في حين أن المتطرفين الشيعة ينبزون السنة بأنهم "نواصب"، ويقصدون أنهم يناصبون أهل البيت العداء. هذه الظاهرة هي ما يسميها الدكتور عبدالله البريدي "السلفية الشيعية والسنية" في كتابه الذي حمل العنوان نفسه، ويُقصد بها التطرف تجاه الأخر واعتباره عدوا للدين أو المذهب.

تعود بداية السجالات الطائفية في التاريخ الإسلامي إلى الخلافات الفكرية والفقهية التي حدثت خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى، والتي نتج عنها نشوء فرق وطوائف، ومع مرور الزمن أصبح أتباع كل فرقة أو طائفة يتعصبون لطائفتهم أو فرقتهم، ويرون أن بقية الفرق على باطل. ولعل الحديث المنسوب للنبي (ص) "تفترق أمتي على ثلاث وسبعون فرقة كلها في النار إلا واحدة" جعل كل فرقة أو طائفة تجتهد

لكي تثبت أنها الفرقة الناجية وأنها المقصودة بالحديث. وهو ما أدى إلى سجالات ومناظرات بين أتباع المذاهب لا أول لها ولا أخر لإثبات ذلك.

وصل التعصب الأعمى إلى حد دفع بعض المتعصبين إلى اختلاق أحاديث نبوية لتعزيز موقف طائفته او لذم خصومه في الطوائف الأخرى (خالد كبير، التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي، ص ٨). بل إن أمر التعصب تعدى ذلك إلى السب والشتم واللعن على منابر المساجد، وكتب التاريخ الإسلامي مليئة بذلك (هاشم معروف الحسني، الموضوعات في الآثار والأخبار).

ولأن التعصب لا يقف عند حد، فإن هذا التعصب يصل إلى حد تكفير الأخر، وهو ما قد يفضي إلى إباحة دمه وماله وسبي عياله، والمجازر التي حصلت لأسباب طائفية أكثر من أن تحصى، وهي وصمة عار كبيرة في التاريخ الإسلامي، وهو الدين الذي يُفترض أنه جاء لنشر العدل والسلام في العالم. وقد شهدنا في السنوات القليلة الماضية نماذج عديدة على تلك المجازر الطائفية، وخاصة تلك التي أُرتكبت من قبل تنظيم داعش، والتي راح ضحيتها في يوم واحد ١٧٠٠ إنسان. ورغم كل ما يُدعى بأننا غادرنا هذه العقلية المتعصبة، وأننا أصبحنا نعيش في عصر الانفتاح الفكري وتقبل الأخر فإن الشواهد الماثلة أمامنا في المجتمع تؤكد أننا لانزال نعيش العقلية نفسها.

السجالات الطائفية التي تحدث بين أتباع الطرفين لإثبات أنهم على حق وأن الآخر على خطأ، تؤثر بشكل تلقائي على عامة الناس. في السابق كنت أعتقد أن الحوارات الفكرية بين مثقفي الطرفين قد تكون مفيدة، حتى يتعرف كل طرف على أفكار الطرف الآخر، بدلاً من أن تصل إليه مشوهة، وأن مثل تلك الحوارات قد تكسر حدة الخلاف. لكن في الآونة الأخيرة أصبحت على قناعة أن مثل تلك الحوارات لا تفيد شيئاً، بل ربما كانت مضرة، لأن المتحاورين لا يدخلون تلك الحوارات بغية محاولة الفهم والإقناع، بل يعتبرونها معركة لا يجوز أن يخسروا فيها؛ لأنهم لا يمثلون أنفسهم

فحسب، بل يمثلون الطائفة ككل. ولذا تجد أن تلك الحوارات تتحول إلى سجالات عقيمة ومحاولة لتقصي نقاط الضعف عند كل طرف، وتستمر هذه السجالات وكأنها معركة بين الطرفين، وينتقل السجال إلى المتابعين الذين ينقسمون إلى قسمين، كما يحدث مع الجمهور الذي يشجع ناديين متنافسين في لعبة كرة القدم.

وإذا رجعنا إلى الحوادث التاريخية نجد أن البسطاء من الطائفتين هم من يذهبون ضحية للأقلية المتعصبة من الطرفين، ويكفينا أن نعرف أن مدينة بغداد استبيحت ١٣ مرة على أساس طائفي من هذا الطرف أو ذاك في أقل من ٢٠٠ سنة، وتعرض سكانها للتقتيل على أساس طائفي مروع، حيث كانت شوارعها في كل مرة تمتلئ بالجثث، بما فيهم النساء والأطفال، حتى أن نهر دجلة اصطبغ لونه بالحمرة من كثرة الجثث التي ألقيت فيه.

وليس بعيداً عنا ما حدث قبل سنوات (٢٠١٤–٢٠١٨) من فتنة طائفية طاحنة في العراق راح ضحيتها مئات الآلاف من الأبرياء من الطرفين. ولا يقتصر هذا العنف المروع على القرون المتأخرة، فتاريخ الدول الإسلامية –مع الأسف الشديد– مليء وحافل بشواهد لا تعد ولا تحصى على مجازر دموية حدثت تارة للتغلب والملك، وتارة على أساس التعصب الطائفي.

هذا الوضع يبين إلى أي درجة يمكن أن تصل خطورة التعصب الطائفي أو العرقي، كما يبين كيف أن البسطاء الذين لا ناقة لهم ولا جمل هم من يدفعون ثمن ذلك التعصب، ولك أن تعلم أن من قتل في ثورة الزنج وحدها بلغ نصف مليون إنسان، ومنها مذبحة كربلاء التي قام الوالي العثماني نجيب باشا بارتكابها في عام ١٨٢٤م في ثاني أيام عيد الأضحى، وهي المجزرة التي ذهب ضحيتها في يوم واحد ٢٠ ألف إنسان (باقر ياسين، العنف الدموي في العراق، ص ١٥٣). وفي حادثة أخرى، وقعت سنة ٤٩٤ هجرية، أمر السلطان السلجوقي بركياروق بقتل الشيعة الباطنية

الإسماعيلية، فقام أهل أصفهان للانتقام منهم، فحفروا لهم أخاديد أوقدت فيها النيران، وجعلوا يأتون بهم ويلقونهم في النار واحداً تلو الأخر، إلى أن قتلوا منهم خلقاً كثيراً (الذهبي، السير، ج١٩، ص ٤٠٤). وقد أُحصيت الفتن التي وقعت بين السنة والشيعة في التاريخ الإسلامي فكانت ٥٢ فتنة، وكان أكثرها في القرن الرابع والخامس والسادس الهجري.

النتائج والتوصيات

١. من الناحية الاجتماعية، كلما زاد التمييز ضد أقلية ما فإن هذه الأقلية تميل بشكل أكبر للتقوقع لحماية نفسها. وكنتيجة لذلك، فإنه كلما قلت وتضاءلت مستويات الاندماج داخل المجتمع، كلما برزت في المجتمع مسألة الأقليات وتداعياتها الثقافية والاجتماعية.

٢. تحولت قضية الولاء عبر الزمن إلى عقدة نقص لدى الشيعة في بلدانهم. وعلى هذا الأساس، يعتبر الكثير من الشيعة أن دولهم تعاملهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، إلى جانب الشعور بعقدة النقص، فإن المواطن الشيعي يعيش حالة من التناقض أو الازدواجية في الشخصية بين الهوية المذهبية والهوية الوطنية.

٣. لا يوجد تضاد بين الهويتين المذهبية والوطنية، فالهوية المذهبية ليست عائقاً للاندماج الوطني، كما الهوية الوطنية لا يجوز أن تصادر الهوية المذهبية، ولذلك يمكن المزج بين الهوية المذهبية وبين الهوية الوطنية.

٤. تاريخ الشيعة الحافل بالمظلومية لا ينبغي أن يتحول إلى قناعة بأن المظلومية قدر محتوم، بل الواجب السعي دوماً إلى التخلص من هذا الشعور الذي يشكل حاجزاً نحو تحقيق الأهداف.

٥. من الخطأ أن يتقوقع الشيعة في أي مجتمع، وبالأخص في المجتمعات الذين يعتبرون فيها أقلية، بل ينبغي الانفتاح على بقية مكونات المجتمع، وبالأخص الأكثرية، لأن التقوقع يمثل خطراً وجودياً عليهم.